صورة النبي ﷺ في أشعار معاصريه

Portrayal of Prophet Mohammad (pbuh) in the Poetry of His Contemporaries.

أ.د . دلال حسن عبّاس
Prof .Dr. Dalal Hassan Abbas

صورة النبيّ ﷺ في أشعار معاصريه

Portrayal of Prophet Mohammad (pbuh) in the Poetry of His Contemporaries.

أ.د . دلال حسن عبّاس
الجامعة اللبنانيّة / كلية الآداب والعلوم الانسانية/ قسم اللغة العربية وآدابها

Prof .Dr. Dalal Hassan Abbas
Department of Arabic. College of Arts and Humanist Sciences. University of Lebanan For Women

dalal.abbas@gmail.com

تاريخ التسليم:١/ ١٢/ ٢٠١٨
تاريخ القبول: ٦ / ١ / ٢٠١٩

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخّص البحث

إنّ هذه المقالةَ تهدف إلى تبيان صورة النبيّ محمّد (ﷺ) في أشعار معاصريه، لاسيّما حسّان بن ثابت، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك الأنصاريّ، مع الأخذ في الحسبان الاختلاف في كيفيّة فهم كلّ واحدٍ من هؤلاء الشعراء الثلاثة لدور محمدٍ (ﷺ) نبيّا ورسولًا ، كونهم من الشعراء المخضرمين ، الذي عاشوا جزءًا من حياتهم في الجاهليّة (طال أم قصُرَ) وجزءًا في الاسلام ، وقالوا الشعرَ في المرحلتَين ، و كان طبيعيًّا أن لم يكن بإمكانهم نفسيًّا التخلّي بين ليلةٍ وضحاها، عن كلّ ما علق في أذهانهم من قِيَمِ الجاهليّة (شأنهم في ذلك شأن معظمِ الذين أسلموا وهم كبارٌ في السنّ) . وسنرى من استقراء أشعارهم ، كيف وظّفوا المزايا الأخلاقيّة النمطيّة الموروثة ، والتي كانت تُعدّ من مكارم الأخلاق في العصر الجاهليّ في مدحهم للنبيّ ، وفي رثائه ،وكذلك في هجائهم لأعدائه ،مع الأخذ في الحسبان الدور الذي رسمه النصّ القرآنيّ للشاعر، عندما وصف الشعراء أنّهم يتّبعهم الغاوون ، واستثنى الذين آمنوا منهم ونصروا الرسالة . ماهي الأوصاف التقليديّة التي وصف هؤلاء الشعراء الثلاثة النبيَّ (ﷺ) بها ؟ وما الأوصاف الجديدة المستمدّة من الرسالة ؟ وكيف عبّر عنها كلُّ واحدٍ منهم انطلاقًا من تاريخ اعتناقه الإسلامَ ،ومقدار فهمه لتعاليمه ؟ وهنا نلحظُ الفرقَ بين مدحيّة كعب بن زهير الحديثِ إسلامهُ و مدائح الأنصاريَّيْن ، ومن ثمَّ الفرق بين أشعار حسّان الذي كان مسنًّا حين أسلمَ وأشعار كعب الذي كان ما يزال شابًّاعند تشرّفه باعتناق الاسلام لنصلَ إلى نتيجةٍ مفادُها أنّ التفاوتَ في رؤيةِ هؤلاء الشعراء الثلاثة إلى النبيّ، إنّما هو صورةٌ مصغّرةٌ للتفاوت القائم بين مستويات فهم معاصريه له ـ ومن ضمنهم صحابتُه ـ وتاليًا التفاوت في فهمهم لرسالته.

الكلمات المفتاحيّة :صورة النّبيّ في شعر معاصريه ـ العصر الجاهليّ ـ عصر صدر الاسلام ـ الأوصاف النمطيّة ـ الأوصاف التقليديّة ـ الأوصاف الاسلاميّة ـ المدح ـ الرثاء ـ النصّ القرآنيّ ـ

Abstract

This article aims to display the image of Prophet Mohammad (pbuh) in the poetry of his contemporaries، particularly Hassan Bin Sabet، Kaeb Bin Zuhair، and Kaeb Bin Malek Al-Ansari and take into account their different understandings of the Prophet (pbuh) which set their perspectives apart respectively regarding him as both a Prophet and a messenger. Moreover، their recital of poetry during both ages is considered، and it is psychologically natural for them not to lose all the values stuck to their minds during the Ignorance Age. Through their poetry، we will deduce how they employed their inherited ethical norms، which were morally regarded as high in the Age of Ignorance، to speak well of the Prophet، lamented him، and ridiculed his enemies as they take into consideration his niche in the Quranic text and the idea that those who follow poets are lost، excluding those who believe and support the his message.

What are the traditional qualities used by the three poets to describe the Prophet (pbuh)? What were the newer qualities derived from the message? How did each one of them express these qualities when they embraced Islam? How much of his teachings were they able to understand? Here we note the difference between the newly converted Kaeb Bin Zuhair's praise and the Ansar's ، and then the difference between Hassan's poetry - already being an elder by the time he converted to Islam - and the poetry of Kaeb who was still young when he was honoured with Islam. It is to conclude that the disparity between these poets' visions of the Prophet is but a minimized picture of the heightened disparity between the levels in which his contemporaries understood him.

Key words: The Age of Ignorance – The Era of Islam – Patterned (typical) qualities – Traditional qualities – Islamic qualities – Praise – Lamentation – The Quranic text.

تمهيد:

منذ أنْ بدأ الرسول ﷺ يُردّد الآيات الأولى التي أوحيتْ إليه، على أهلِه الأقربين وأصحابِه الذين آمنوا به، بدأ الأدبُ العربيُّ (شعرًا ونثرًا) مرحلةً جديدةً من مراحلِ حياته... لقد كان القرآنُ الكريمُ مصدرَ القيمةِ التي استمتع بها الأدب، فقد اختُصرت جميع الاهتمامات الفنّيّةِ في حياةِ الجماعات الإسلاميّة في هذا المظهرِ القوليِّ من مظاهر التعبير.

إذ إنّ هذا الدين نفسَه، كان يخالفُ الأديان الأخرى جميعًا، في أنّ معجزته الكبرى كانت معجزةً بيانيّةً، وأنّه استثار قوى الإعجاب والدهشة في نفوس العرب من حيث هذا الفنُّ القوليُّ الذي سما به ومكّن له منه، لقد كان الأدبُ هو الإطار الذي انسكبت فيه صورُ الفكرةِ الإسلاميّة. وكان شكلُ التعبير في النصّ القرآنيّ العاملَ الحاسمَ في الاستجابةِ لمضمونه التعليميّ، ففي الرواية أنّ الخليفة "عمر" آمن بالإسلام من طريق سَماعِه، والوليدَ بنَ المغيرة أحدَ سادة قريش، قال لقريش لمّا سمعَ بعضًا من القرآن الكريم: "فوالله ماذا أقول فيه؟ وَالله مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلا أَعْلَمُ بِرَجَزِهِ وَلا بِقَصِيدهِ مِنِّي، وَلا بِأَشْعَارِ الجِنِّ، وَالله مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَالله إنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثمِرٌ أَعْلاهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يَعْلَى، وَإِنَّهُ لَيُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ".... ثم يقول: "ما هُوَ إِلا سِحْرٌ يؤثَرُ، أَمَا رَأَيْتُمُوهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرَّجُلِ، وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَوَالِيهِ؟»[1].

وهذا ما عبّر عنه النصّ القرآنيّ:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ» (سبأ: الآية ٤٣)،

«وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ» (سورة صَ: الآية ٤)، وقال عنه الكافرون: «بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ» (الأنبياء: الآية ٥).

وقالوا «قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ»، (النبأ: الآية ٦٩).

وقال تعالى: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ، تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ»، (الحاقة: الآيات ٤٠-٤٣)، «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ» (يَس: الآية ٦٩).

إنّ نفيَ القرآن عن نفسه صفةَ (الشعر) ونفيَه عن النبيّ صفة (الشاعر)، لا بُدَّ أن يُفهم في ضوءِ الصراع الذي دار بين «الإيديولوجيا» الجديدة ومثيلتها القديمة، لقد كان الشعر هو «النصّ» الوحيد في ثقافة ما قبل الإسلام.

موقف الشعر من الإسلام:

لقد لاقت الدعوة الإسلاميّة مقاومةً عنيفةً من العرب، وكان زعماء مكّة هم مصدر هذه المقاومة... وكان الشعرُ أحدَ الأدوات التي استخدموها في محاربةِ الدعوةِ الجديدة، وقد انطلق مشركو قريش يُغرون شعراءَهم بالنبيّ ودعوتِه، وانطلق هؤلاء الشعراء يقولون القصائدَ والمقطّعاتِ يهاجمون النبيّ والدين... لقد كان الشعراء أيضًا يدافعون عنِ القيمِ التي تملأ عقولهم وقلوبهم، كانوا يدافعون عن نمطِ حياةٍ وعن حُريَّةٍ تمكّنهم من قولِ ما يريدون: بلا ضوابط وبلا قيود... كان الشعراء يقاومون هذه الرقابة الجديدة التي ستسيطر عليهم... ولنا أنْ نتصوّر الأذى الذي لحقَ بالنبيّ وبالدعوةِ من جرّاءِ هذه الأهاجي، إذا نحن تذكّرنا قيمةَ

الشاعرِ وسيرورةَ الشعرِ في القبائل العربيّة: ذلك أنّ الدعوةَ وإن كانت واضحةً في أذهان أهل مكّة والمدينة فإنّها تبقى صورة ضبابيّة لدى القبائل الضاربةِ في الصحراء، التي وصلها شعرُ المشركين وأهاجيهم، قبل وصول الدعوة أو في أثنائها، وقد نقلت أهاجي المشركين صورةً مشوهة عن الدين الجديد إلى تلك القبائل، وأفسدت عمل الدعاة الذين كان النبي يرسل بهم إلى القبائل يبصّرون الناسَ بالدعوة. وإذا تذكّرنا أيضًا أثرَ الشعر في نفوس العرب وسرعةَ استجابتهم له، وقدرته على تحريك عواطف الجماعة، أدركنا العراقيل التي وضعها هؤلاء الشعراء في طريق الدعوة... ولم يقف الأمر عند استخدام الشعر في محاربة الدعوة الإسلاميّة وإنّما تعدّى ذلك إلى أن رُميَ النبيُّ نفسه بأنّه شاعر، فكان لزامًا أن ينفيَ القرآنُ عن نفسه صفةَ الشعر، لأسبابٍ ترتبط بتصوّر العرب لماهيّة الشعر من حيث المصدرُ والوظيفة، وأن يدفع عن الرسول صفة الشاعريّة: لأنَّ الوظيفةَ التي أوكلت إليه مغايرةٌ للوظيفة التي كان الشاعر يقوم بها:

فالشاعر صوت قبيلته، ومحمّد ﷺ مبلِّغ رسالة ربّه، والشعر نصٌّ يحقّق مصالح القبيلة في مهاجاة أعدائها، ونصرةِ حلفائها، أو في مدح رجالها وزعمائها. والقرآن نصٌّ يستهدف إعادة بناء الواقع وتغييره نحو الأفضل، من هنا كان التشديد على أن محمّدًا ﷺ ليس شاعرًا أو كاهنًا أو ساحرًا وعلى أن القرآن ليس بشعر.

موقف الإسلام من الشعر:

تمثله الآيات الأخيرة من سورة الشعراء: "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

إنّ النصّ القرآنيّ في نفيه صفة الشعر عن نفسه، وصفة الشاعريّة عن محمّدﷺ واتهام الشعراء بأنّهم يهيمون في كلّ وادٍ، لا يدين الشعر من حيث هو، بل يدينُ الشعر الذي أراد معاصرو النبي أن يجذبوا النصَّ القرآنيَّ إلى آفاقه، محاولين بذلك أن يردّوا ظاهرة الوحي إلى النمط الثقافيّ السائد والمستقر، لذلك انحاز النصّ القرآنيّ إلى الشعر الذي يساعده على تحقيق وظيفته: «إلاّ الذين آمنوا»، وانصبَّ الهجوم على الشعر الذي يشوّش عليه القيام بهذه الوظيفة.

لقد فرّق النصّ القرآنيّ بين الشعر الذي يتّحد من حيث مصدرُه بالوحي الدينيّ وبين الشعر الذي يأتي من مصادر أخرى، لذلك كانت أقوال «حسّان بن ثابت». وعبد الله بن رواحة» و«كعب بن مالك الأنصاريّ» مؤيَّدة كما وصفها النبيّ[٢] "بروح القدس" جبريل، الذي يوحي بالقرآن، في حين كان مصدر شعر الأعداء "الشيطان"، ولذلك يقول النبيّ عن هذا الشعر كما تروي كتب الحديث: "لأَنْ يَمْتَلِئ جَوْفُ أَحَدِكُم قَيْحًا خَيْرٌ لهُ مِنْ أَنْ يَمتَلِئَ شِعْرًا»[٣].

هذا الكلام يعني لونًا معينًا من الشعر: شعر العصبيّة التي جهد الإسلام أن يكسر حدّتها وشعر المنافرات التي كانت تُغنّي بأمجاد القبيلة على حساب هجو القبائل الأخرى، وشعر الهجاء الذي كان يؤذي النفس ويورّث الحقد، ويبعث الضغائن.

أما في ما عدا ذلك، فإنّ الرسول ﷺ كان يقدّر قيمة الشعر ومهمّته في الحياةِ العربيّة، ومدى أثره فيها ونفاذه إلى أعماقها؛ لذلك أمر أن توضعَ هذه الأداةُ الإعلاميّة التي يُحسِنُ العرب استخدامها في مكانها من حماية العقيدة، ونصرة الدين والتبشير بالدعوة بين القبائل...

ومن ذلك كان موقفه من شعراء الأنصار ومن تشجيعهم، وكان تحريضه لحسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدِ الله بنِ رواحة في الردّ على "عبد الله بن الزّبعري"، و"ضرار بن الخطّاب"، و"عمرو بن العاص"، و"أبي سفيان" وغيرهم من شعراء قريش المشركين...

إذًا لم يُلغ الإسلامُ الشعر شكلًا أو طريقة تعبير، وإنّما ألغى دوره القديم، وأعطاه وظيفة جديدة، وهي الدفاع عن الدعوة، أي أنه جعله أداةً إعلاميّة.

من أوائل الردود الشعريّة على قريش مدحًا للرسول، ما روته كتب السيرة من الفخر الخالص يشيد فيه أبو طالب بمحمّد ﷺ وهاشم وبعبد مناف، ويعرّض بمن خذل محمّدًا منهم وبمن عاداه من قريش وممّا جاء فيه[٤]:

إذا اِجتَمَعَت يَومًا قُرَيشٌ لِمَفخَرِ ... فَعَبدُ مَنافٍ سِرُّها وَصَميمُها

فَإِن حُصِّلَت أَشرافُ عَبدِ مَنافِها ... فَفي هاشِمٍ أَشرافُها وَقَديمُها

فَإِن فَخَرت يَومًا فَإِنَّ محمّدًا ... هُوَ المُصطَفى من سِرّها وَكَريمُها..[٥]

وأورد محمّد بن سلام الجمحيّ بيتًا من قصيدة طويلة لأبي طالب، وقدم لها بالقول: "كان أبو طالب شاعرًا جيد الكلام؛ وأبرع ما قاله قصيدته التي مدح فيها

النبي ﷺ وهي:

وأبْيَضُ يُسْتَسْقى الغَمامُ بِوَجْهِهِ ربيعُ اليَتامى عِصْمَةٌ للأرامِلِ[٦]

ويطالعنا في هذا الوقت المبكر من العهد النبويّ شعرٌ لصَرْمة ابن قيس الأنصاريّ يروي لنا بلسان المؤرّخ جانبًا من جهاد النبي ﷺ في دعوة قومه إلى الإسلام[٧]:

ثَـوَى فِي قُرَيْـشٍ بِضْـعَ عَـشْرَةَ حِجّـةً يُذَكّـرُ لَا يَلْقَـى صَدِيقًـا مُوَاتِيَـا

وَيَعْـرِضُ فِي أَهْـلِ الْمَوَاسِـمِ نَفْسَـهُ فَلَـمْ يَـرَ مَـنْ يُـوفِي وَلَمْ يَـرَ دَاعِيَـا

فَلَـمّا أَتَانَـا أَظْهَـرَ الله دِينَـهُ فَأَصْبَـحَ مَـسْرُورًا بِطِيبَـةَ رَاضِيًـا

فَأَصْبَـحَ لَا يَخْشَـى مِـنْ النّـاسِ وَاحِـدًا قَرِيبًـا وَلَا يَخْشَـى مِـنْ النّـاسِ دانيَـا

وَأَلْفَـى صَدِيقًـا وَاطْمَأَنّـتْ بِـهِ النّـوَى وَكَانَ لَـهُ عَوْنًـا مِـنْ الله بَادِيَـا

يَقُـصّ لَنَـا مَـا قَـالَ نُـوحٌ لِقَوْمِـهِ وَمَـا قَـالَ مُوسَـى إذْ أَجَـابَ الْمُنَادِيَـا

بَذَلْنَـا لَـهُ الْأَمْـوَالَ مِـنْ حِـلّ مَالِنَـا وَأَنْفُسِـنَا عِنْـدَ الْوَغَـى وَالتّآسِـيَا

وَنَعْلَـمُ أَنّ الله لَا شَيْءَ غَـيْرَهُ وأَنّ رسـولَ الله لِلْحَـقِّ رائيـا

نُعَـادِي الـذِي عَادَى مِـنْ النّـاسِ كُلّهِمْ ... جَمِيعًـا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيـبَ الْمُصَافِيَـا.

يرصد الشاعر الأحداثَ ويعيّنها بدقّة وتسلسل بأسلوبٍ أقرب إلى المؤرّخ منه إلى الشاعر. فالنبيّ لبث زمنًا طويلًا في مكّة يدعو قومه إلى الإسلام على وفود الحجاج والزائرين، فلا يلقى إلاّ الصدود والتمنّع، حتى إذا اتصل بالأنصار قرت

نفسُه بتصديقهم إياه. وكانوا له وللمهاجرين نعم الصديق، والنبيّ كان يفقّههم في الدين ويقصّ عليهم أخبار الأولين ما يجدون فيه عبرة وسلوى... وعلى هذا النهج السرديّ يكمل الشاعر كلامَه على قومه الأنصار وما قدّموه من دعم ماديٍّ ومعنويٍّ للنبي ﷺ...

نحن في هذه الدراسة لا نبغي إحصاء ما هُجي به النبي وما مُدحَ به، وإنما تقديمُ نماذج لثلاثة شعراء: «كعب بن زهير» يمثل الذين هاجموا النبي وآذوه بشعرهم ثمّ تابوا ومدحوه خوفًا وأعلنوا إسلامهم، لا سيّما زعماء قريش وشعراؤهم الذين وجدوا أنفسهم مضطرين لإعلان إسلامهم، بعد أن توالت عليهم الهزائم، وبعد فتح مكّة الذي كان إيذانًا بتمكين الإسلام من الجزيرة العربيّة كلّها. وفي عام الفتح بدأت وفود العرب تتوالى على الرسول تعلن ولاءها وتُشهِدُه على إسلامها، وفَزَعَ إليه الشعراء الذين هجوه من قبل تائبين: ابن الزبعري وأبو سفيان وعمرو بن العاص، وأنس بن زنيم... والغريب في الأمر أن عدّ المؤرخون اللاحقون هؤلاء من الذين أسلموا وحَسُنَ إسلامُهم!! والشاعر الثاني هو «كعب بن مالك الأنصاريّ» الذي كان لا يزال شابًا حين أسلم مع قومه الأنصار، والثالث «حسان بن ثابت» الذي كان في الستين حين أسلم، والفرق بين أشعار كعب بن مالك وأشعار حسان، هو الفرق بين من يعتنق الفكرة الجديدة شابًا فيتمثّلها، وبين من يعتنقها شيخًا مسنًّا. أيضًا هو فَرْقٌ بين شعر من قاتل بين يدي النبيّ والدين الجديد، وبين من اكتفى بتأييد الدين بلسانه من دون سيفه.

أيضًا لا نجزم القول إنّ كلَّ الذين وفدوا على النبيّ، كان إسلامهم رقيقًا، فمن الشعراء الوافدين الذين انتصروا للإسلام بالسيف والكلمة النابغة الجعدي[٨]،

وكنيته "أبو ليلى"، شارك في الفتوحات الإسلاميّة وقاتل إلى جانب عليعليه السلام في صفّين، وأيّدَ عبد الله بن الزبير في خروجه على بني أميّة:

كان أوّل اتصاله حين وفد على النبي وأنشده الأبيات التالية:

أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى   وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجَرَّةِ نَيِّرَا

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا   وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فاعترضه النبي قائلًا:

"إلى أَيْنَ يَا أَبا لَيْلَى؟". فأدرك النابغة كما يبدو أنَّ النبيَّ لم يستسغ هذا الفخر المشوبَ بالعنجهيّة والتعالي والتجبّر، فأجابه وكأنه يعتذر إليه: "إلى الجَنَّةِ يا رَسولَ اللهِ، بك»، فقال النبي: «إلى الجنّةِ إِنْ شَاءَ اللهُ». وتابع النابغة قائلًا:

وَلا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ   حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرا

وهو أحد الشعراء الذين استضاؤوا بالإسلام وتعاليمه الروحيّة، وقد خرج يجاهد في سبيل الله، وهو يتلو القرآنَ آناء الليل وأطرافَ النهار، فكان طبيعيًّا أن يستلهمه في شعره، ويقتبس معانيه، ويعيد صياغتها شعرًا...[٩]

كعب بن زهير[10]:

نتكلم على صورة النبي في قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير بن أبي سلمى المُزنيّ. وقد نُظمت هذه القصيدة في مدح الرسول ﷺ وتقديم الاعتذار عن الأبيات الشعريّة التي أرسلها كعب لأخيه بُجَير" يلومه فيها على إسلامه، ويعرّض بالرسول. تُعَدُّ هذه القصيدة من أشهر القصائد العربيّة، التي شُرحت مرارًا وتكرارًا، ولا يوجد اختلاف بين المؤرخين وكتّاب السير حول سبب نظم هذه القصيدة، ولكن هنالك اختلاف حول التفاصيل والجزئيّات المتعلّقة بالحادثة، أضيفت إليها بمرور الزمان تفاصيل ووقائع أخرى، منها ما يزعمه بعض المؤرّخين المتأخّرين من أنّ النبيّ خلع عليه "بُردَتَه" على إثر إنشاده القصيدة، فلا سند له في "سيرة الرسول" لابن إسحٰق وابن هشام. لقد نالت قصيدة بانت سعاد شهرةً واسعةً، فاهتمّ بها النحويّون من شرقيّين ومستشرقين، وخمّسوها وترجموها... وقد سار فيها كعب على الطريقة الجاهليّة، كما يظهر من تقسيمها[11].

بدأنا الكلام على صورة النبيّ في شعر "كعب بن زهير" الذي مدح النبي بعد هجائه، للقول إنّ الدافع الأول لمدحه نفعيّ، مثله مثل أولئك الذين ذُكر أنّهم من الصحابة الذين حَسُنَ إسلامهم(١٢)، والمشهور عنهم أنّهم أسلموا إمّا خوفًا كحال "كعب بن زهير"، أو للضرورة بعد فتح مكّة، أو لمصلحة، أو كانوا صادقين، لكنَّهم فهموا الإسلام فهمًا سطحيًا، وأخضعوه لمفاهيمهم السابقة، أو بالأحرى مزجوا الجديد بالقديم من المفاهيم، وذلك بيّنٌ في الأبيات التي لام فيها أخاه بجيرًا وعرَّض بالرسول مسميًا إيّاه "المأمون"، أو "المأمور" او "المأفون" بحسب الروايات المختلفة والملطّفة، وهذا الوصف الأخير لا يختلف عن وصف جلاوزة قريش الذين قالوا

عنه إنّه ساحر، وإنّ القرآن سحر، ثمّ ذمَّ كعب من يتخلّى عن سنة الآباء والأجداد، فهذه السنّة برأيه هي الهدى، والدين الجديد ضلالة:

ألا أَبْلِغَا عنِّي بُجَيْرًا رســـالةً　　　فهلْ لكَ فيما قُلْتُ: وَيْحَكَ هلْ لَكَا

أقلتَ ما قلتَ وأنت بملء إرادتك؟ كأنه يقول له: أمر لا يُصدّق أن تكون فعلت ذلك وأنت بكامل وعيك.

سقاكَ بها المأمونُ [المأمور] كَأْسًا رَوِيَّةً　　　وأَنْهَـلَكَ المأمــونُ مـنها وعلَّـــكَا

غبتَ عن الوعي، فتخلّيت عن دينك (أسباب الهدى) واتبعته:

ففارقتَ أسبابَ الهُدَى واتّبعَتَهُ　　　على أيِّ شيءٍ وَيْبَ غَيْرِكَ دَلَّكا
على مــذهبٍ لمْ تُلْـفِ أُمًّا ولا أَبًا　　　عليهِ ولمْ تعـــرفْ علـيهِ أخًا لَكَا

إذًا هذا هو الأمر: التمسك بالقديم تقليدًا، ورفضُ الجديد قبل الاطّلاع عليه تعنّتًا وغرورًا...

ولما جاء إلى النبي معتذرًا ونادمًا، لم يكن قد اطلّع بعد كما يجب على الدعوة، جاءه معتذرًا خائفًا، يحفظ عبارات إسلاميّة جديدة، يتضح من سياق القصيدة أنّ معرفته بها لم تتجاوز الحدود القوليّة السطحيّة، والقصيدة نفسُها تشي بأنَّ قدومه إلى المدينة المنوّرة دافعه الخوف، ففي البيت الرابع والثلاثين وهو يصف ناقته يصرّح بأنّ أقوال الوشاة، وتخلّي أصحابه عنه، من الأسباب التي دفعته إلى المجيء.

يَسعَى الوُشاةُ جَنَابَيْها وقولُهم　　　إنك يا ابنَ أبي سُلْمَى لَمَقْتُولُ

وقالَ كلَّ خَليلٍ كنــــتُ آمُلُه　　　لا أُلْهِيَنَّكَ إني عنكَ مَشغــولُ

إذًا هو مضطرٌ ومسلمٌ أمره إلى الله (البيتان ٣٦/ ٣٧):

فقلتُ خَلُّوا سَبيلي لا أَبَا لكمُ　　　فكُلُّ مَا قَدَّرَ الرحمنُ مَفعولُ
كُلُّ ابنِ أُنْثَى وإن طَالَتْ سَلامَتُهُ　　　يومًا على آلَةٍ حَدْباءَ مَحمولُ

لا جديد هنا إلاّ لفظة «الرحمن»، وغير ذلك إنما هو تقليد لأبيه زهير بن أبي سلمى؛ ويردّد بعد ذلك صيغًا ومعاني شبيهة بما قاله النابغة الذبيانيّ، حين طلب [كعب] من الرسول أن لا يأخذه بأقوال الوشاة:

نُبِّئْـــتُ أَنَّ رَسُــولَ الله أَوْعَــدَنِي　　　وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ الله مَأْمُــولُ

مهْلًا - هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ　　　قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِـــيلُ

لا تَأْخُـــذَنّي بِأَقْـــوالِ الوُشــاةِ وَلَم　　　أُذِنب وَلَو كَثُرَت عَنّي الأَقاويلُ

هذا الكلام غير بعيد عن قول النابغة في اعتذاره للنعمان:

لَئنْ كنتُ قد بُلِّغْــتَ عنّي خـــيانةً　　　لُمبلغُكَ الواشي أغشُّ واكذبُ

إلاّ أن الفرق بين النابغة وكعب يكمن في تلقيح ما قاله كعب بشيء من الألفاظ الإسلاميّة (الرسول، نافلة القرآن)، في حين أن النابغة أقسم يمينًا وثنية فقال:

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْـــبَتَهُ　　　وَمَا هُرِيقَ عَلَى الأَنْصَابِ مِن جَسَدِ

في البيت الواحد والأربعين يقول كعب:

لقد أَقومُ مُــــقامًا لو يَقــــومُ به   أَرَى وأَسْمَعُ ما لو يَسمَعُ الفِيلُ
لظَلَّ يُرْعَــدُ إلا أن يكـــــونَ له   مِن الرسـولِ بإذْنِ الله تَنــويلُ

أي أنّه وجد نفسه في مقام هائل، لو كان الفيل مكانه وسمع ما سمعه هو، ورأى ما رآه، لظلّ يرتجف خوفًا إلى أن ينال العفو، وقد ذكر الفيل رغبةً في التعظيم والتهويل، "لأنَّ الفيل أضخم الحيوانات جثّةً، وأعظمها تأثيرًا في أذهان العرب لكثرة ما تداولوا قصة "الفيل" الأسطورة. حتى أنّ بعضهم توهَّمَ أن الفيّال من أعظم الرجال لكون الفيل من أعظم الحيوانات"(١٣).

في البيت الرابع والأربعين يقول:

حتى وَضَعْتُ يَمِينِي لا أُنَازِعُها   في كَفِّ ذي نَقِمَاتٍ قِيلُه القِيلُ

ظل يرتعد إلى أن وضع يده في يد النبي:

لكنَّ النبي هنا ليس هو الرحيم صاحب الأخلاق الكريمة، وإنما هو «ذو نقمات»، [جبار] إن قال فعل، أي إن هدَّد نفَّذ تهديده، ثم يشبّه النبيّ بالأسد، ويصف هذا الأسد وصفًا قصصيًّا (٤٦-٥٠) على طريقة النابغة، وذلك كلّه وثيق الصلة بالأخيلة الجاهليّة، ثم يشبّه النبي بالنور وبالسيف (٥١).

إنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ   مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ الله مَسْلُولُ

حتى تشبيه النبي بالنور ورد في بعض الروايات: «إنّ النبيّ لسيف»(١٤).

ثمّ يصف النبي زعيم قبيلةٍ محاطًا بجماعةٍ من قريش [يقصد المهاجرين]، ولم يخطر بباله أنّ مدح الأنصار أولى، وهم الذين نصروا النبي، واحتضنوه ودعوتَه والمهاجرين معه، وأنَّ هؤلاء المهاجرين ليسوا جميعًا من قريش، وإنما منها ومن غيرها، لكنَّ عقليَّته الجاهليَّة هي التي صوّرت له أن يمدح النبيّ وقريشًا، وحتى تلك اللحظة، كانت لفظة قريش تعني بالنسبة إلى المسلمين أولئك الزعماء الذين آذوا النبيَّ وآذوا فقراء المسلمين الذين لم يكن لهم حول ولا طول، والذين يشّكلون الجزءَ الأهمّ من الجماعة الإسلاميّة المهاجرة. يقول:

فِي عُصْبَـةٍ مِـنْ قُرَيْـشٍ قَـالَ قَائِلُهُـمْ ... بِبَطْـنِ مَكَّـةَ لَمَّـا أَسْـلَمُوا زُولُـوا

زَالُـوا فَـمَا زَالَ أَنْـكَاسٌ وَلاَ كُشُـفٌ ... عِنْـدَ اللِّقَـاءِ وَلاَ مِيـلٌ مَعَازِيـلُ

شُـمُّ العَرَانِـينِ أَبْطَـالٌ لَبُوسُـهُمُ ... مِـنْ نَسْـجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَـا سَرَابِيـلُ

بِيـضٌ سَـوَابغُ قـد شُـكَّتْ لها حَلَـقٌ ... كأنـه حَلَـقُ القَفْعَـاءِ مَجْـدُولُ

لا يَفرَحـونَ إذا نَالَـتْ رِماحُهُـمُ ... قومًـا وليسـوا مَجَازِيعًـا إذا نِيلُـوا

مدح المهاجرين من قريش الذين أشار أحدهم عليهم بالهجرة فهاجروا، ولم يكونوا ضعافًا ولا جبناء، ولا عُزَّل. وهم شُمّ العرانين (ذوو أنفة)، أبطال يلبسون الدروع في أثناء الحرب، ودروعهم من نسج داود [فقد كان العرب ينسبون صنع الدروع إلى النبي داود، وقد ورد ذلك في أشعارهم قبل الإسلام وبعده، وأشار إليه القرآن أيضًا (الأنبياء: الآية ٨٠)، ودروعُهم تلك محكمة الصنع، تشبه حلقاتُها حلقاتِ نبات القفعاء (الذي ينبت في الصحراء)، وهم من كثرة ما انتصروا على أعدائهم تراهم لا يفرحون بالانتصار، وإذا غُلِبوا لا يضطربون لثقتهم بالنصر

المقبل، ولا يقع طعن الأعداء في ظهورهم، لأنّهم لا ينهزمون، ولا يتأخّرون عن موارد الردى...

نلاحظ أنّ الصور والألفاظ والمعاني كلّها مستمدّة من القيم والمعاني والألفاظ والصور والأخيلة الجاهلية.

بالنسبة إلى هذه النقطة بالتحديد نرى أنّ شعراء الأنصار لم يمدحوا قريشًا، لأنَّ سادة قريش هم الذين آذوا النبي وحاربوه قولًا وفعلًا، وأجبروه والعصبةَ المسلمةَ على الهجرة، لذلك نراهم يهجون قريشًا في أكثر من موضوع ردًا على شعرائها، عمرو بن العاص، وأبي سفيان، وضرار بن الخطاب،...

يقول كعب بن مالك الأنصاري:

أَبْلِغْ قُرَيشًا وخَيْرُ القولِ أصْدَقُهُ ... والصّدْقُ عندَ ذَوي الألْبَابِ مَقْبُولُ

أنْ قَدْ قَتَلــْنَا بقَتْلانَا سَرَاتَكُمُ ... أهـلَ اللواءِ فَفي مَا يكثرُ القِيلُ؟[١٥]

وحسان بن ثابت يقول، ردًّا على ابن الزبعري الذي قال في يوم أُحُد حين أصيب مَن أصيب من أصحاب النبيﷺ:

ليتَ أشياخي ببدرٍ شَهِدوا ... جَزَعَ الْخَزْرَجِ من وَقْعِ الأَسَلْ

قد قتلنا القرْمَ من ساداتِهم ... وَعَدَلْنَاه ببَـدرٍ فَاعْتَــدَلْ [١٦]

فقال حسان مجيبًا ابن الزبعري[١٧]، في البيت ١٠ وما بعده:

وَرَسولُ اللهِ حَقّـًا شـــاهِدٌ ... يَومَ بَـدرٍ وَالتَنـابيـلُ الهُـبَل

وَتَرَكنا مِن قُـــرَيشٍ جَمعَهُم ... مِثلَ ما جُمِّعَ في الخِصبِ الهَمَل
وَقتَلنا مِنـكُمُ أَهـــلَ اللِوَا ... إِذ لَقيـناكُم كَـأَنّا أُسـدُ طَـلّ
فَقَتَلـنا كُـلَّ رَأسٍ مِـنهُمُ ... وَقتَلـنا كُلَّ جَحجاحٍ رِفَـلّ
كَـم قَتَلـنا مِن كَـريمٍ سَيِّدٍ ... ماجِدِ الجَدَّينِ مِقدامٍ بَطَل
وَشَـريفٍ لِشَـريفٍ مـاجِدٍ ... لا نُباليهِ لَدى وَقعِ الأَسَل
حينَ أَعلَنتُم بِصَوتٍ كاذِبٍ ... وَأَبو سُفيانَ كَي يَعلو هُبَل
نَحنُ لا أَنتُم بَني أَستـاهِها ... نَحنُ في البَأسِ إِذا البَأسُ نَزَل

وبدلًا من قريش، مدح شعراء الأنصار بني هاشم قوم النبي في أكثر من موضع، ورثوا المستشهدين منهم: عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، والحمزة بن عبد المطلب:

في رثاء الحمزة يقول كعب بن مالك الأنصاريّ:

... ألاَ يَا هَاشِمُ الأَخْيَارُ صَبْرًا ... فَكُلُّ فَعَالِكُمْ حَسَنٌ جَمِيلُ (١٨)

ويقول في رثائه لشهداء مؤتة مادحًا بني هاشم:

...قَوْمٌ بِهِمْ عَصَمَ الْإِلَهُ عِبَادَهُ ... وَعَلَيْهِمُ نَزَلَ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ.
وبِهَدْيِهم رَضيَ الإلـهُ لِخَـلقِه ... وبحدِّهم نُصِرَ النبيُّ المرسَلُ
بِيضُ الْوُجُوهِ تُرَى بُطُونُ أَكُفِّهِمْ ... تَنْدَى إِذَا اعْتَذَرَ الزّمَانُ الْمُمْحِلُ

وفي رثاء حسان لشهداء مؤتة يقول عن بني هاشم، وعن جعفر بن أبي طالب(١٩):

... أَغَرُّ كَلَونِ البَدرِ مِن آلِ هاشِمٍ   شُجاعٌ إِذا سيمَ الظُلامَةَ مِجسَرُ
... وَكُنّا نَرى في جَعفَرٍ مِن مُحَمَّدٍ   وَفاءً وَأَمرًا حازِمًا حينَ يَأمُرُ
فَما زالَ في الإِسلامِ مِن آلِ هاشِمٍ   دَعائِمُ عِزٍّ لا يَزولُ وَمَفخَرُ
هُمُ جَبَلُ الإِسلامِ وَالناسُ حَولَهُ   رِضامٌ إِلى طَودٍ يَروقُ وَيَقهَرُ
...هُمُ أَولِياءُ اللهِ أَنزَلَ حُكمَهُ   عَلَيهِم وَفيهِم وَالكِتابُ المُطَهَّرُ

كعب بن مالك الأنصاريّ الخزرجي(٢٠):

يمثّل شعره أنموذجًا حيًّا للصراع الأدبيّ العنيف بين شعراء المدينة (المؤمنين) وشعراء مكّة (المشركين) في صدر الدعوة الإسلامية. فهو أحد الشعراء الثلاثة الكبار (من الأنصار)، الذين لبّوا دعوة النبيﷺ، حين طلب إلى الأنصار أن ينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم لـمّا أخذ شعراء مكّة المشركون، يتطاولون على مقامه الشريف ويتجرّؤون على الدين القويم [الشعراء الذين يتبعهم الغاوون].

لقد حمل كعب مع حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة [... إلاّ الذين آمنوا] عبء الدفاع بشعرهم عن الإسلام، والذود عن حماه في تلك المعركة العنيفة بين شعراء المدينة المسلمين، وشعراء مكّة المشركين، وهو شاعر مجيد باعتراف النقّاد القدماء، ولشعره أهميّة كبرى في دراسة هذه الحقبة:

لأنّه من ناحية يصوّر المعركة الشعريّة التي دارت بين شعراء المدينتين.

ولأنّه من ناحية ثانية يصوّر بدقّة ما أصاب الشعر العربيّ من تطوّر في ظلّ الإسلام، وما دخله من عناصر جديدة نتيجة للحياة الإسلاميّة الجديدة.

والفرق بين دراسة شعره ودراسة شعر حسّان بن ثابت أنّ كعبًا كان في الخامسة والعشرين من عمره حين أعلن إسلامه وحسان في الستين، وهنالك حتمًا فرقٌ بين من يسلم وهو شاب ومن يسلم وهو مسنّ، لذلك يمكننا عدّ كعب أكثر تمثّلًا للمعاني الإسلاميّة، وقد ظهر ذلك جليًا في مواضيع شعره كلِّها، في المديح والفخر والرثاء والنقائض.

والفرق الثاني بين دراسة شعره ودراسة شعر حسّان أنّ شعر كعب الجاهليّ مفقود حتى الآن، لذلك تصعب رؤية التغيير الذي طرأ على شعره كما هو الحال بالنسبة إلى شعر حسّان الجاهليّ والإسلاميّ.

والفرق الثالث بين شعره وشعر حسّان، خلوّ شعره (أو على الأقل الموجود بين أيدينا) من المقدّمات الطليّة، على العكس من شعر حسان، حاشا قصيدة واحدة استهلّها ببيتين من الغزل التقليديّ (رثاء حمزة)؛ وربما يرجع ذلك إلى ضياع مطالع قصائده، أو إلى عوامل السرعة والارتجال لملاحقة الأحداث، ولأنَّ أغلب شعره شعر مقطوعات، وهذا النوع من الشعر لا يحتاج إلى مقدمات.

ومن المناقب الجديدة، التي ذكرها وتختلف عما كان يمدح به الشعراء الجاهليون، وعما ورد في بردة كعب بن زهير: توحيد الكلمة، والهداية الإلهيّة، والعدل في السيرة، والالتزام بالحقّ، والهداية إلى ما يُنجي من النار...

فالنبي في شعر كعب هو الذي جمع أمر الأمّة بعد تفرّق وأصلحه بعد خلل:

... لَمَّ الإِلٰهُ بِهِ شَعْثًا وَرَمَّ بِهِ أُمُورَ أُمَّتِهِ وَالأَمْرُ مُنْتَشِرُ (الديوان، ص٢٠٨)

وهو الشهاب المنير المضيء، منطقة الحقّ، وسيرته العدل، وكلامه صدق، كما في قوله في بدر:

سَائِلْ قريشًا غداةَ السَّفْحِ مِنْ أُحُدِ ماذا لَقِينا وما لاقوا من الهَرَبِ

كنّا الأُسُودَ وكانوا النّمْرَ إذ زَحَفُو ما إنْ نراقِبْ مِنْ آلٍ ولا نَسَبِ

... فِينا الرسُولُ شِهابٌ ثُمَّ يَتْبَعُهُ نُورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ على الشُّهُبِ

الحَقُّ مَنْطِقُهُ والعَدْل سِيرَتُهُ فَمَنْ يُجِبْهُ إليهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ

.. يَمْضِي ويذْمرُنَا عَنْ غيرِ مَعْصِيةٍ كأَنَّه البَدْرُ لم يُطْبَعْ على الكَذِبِ

بَدَا لنا فاتَّبَعْناهُ نُصَدِّقُهُ وَكَذَّبوه فكُنَّا أسْعَدَ العَرَبِ

ليسَا سواءً وشتَّى بين أمرِهمَا حِزْبُ الإلهِ وأهْلُ الشِّركِ والنُّصبِ

(الديوان: ١٧٥)

وهو الهادي، إنّ اتّباعَه هدايةٌ والصدُّ عنها كفرٌ وضلال:

... أطَعْنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فِينَا بِغَيْرِهِ شِهَابًا لَنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا ... (الديوان، ٢٩١)

... فَمَنْ يَتْبَعْهُ يُهْدَ لِكُلِّ رُشْدٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يُجْزَ الْكَفُورَ (الديوان: ١٠٣)

ومن مناقبه عليه السلام الصدق في الإنذار وتبليغ الرسالة:

... نذيرٌ صادق أدّى كتابَه وآياتٍ مبيّنةً تنير (الديوان: ١٠٣)

والصدق في القول:

يمضي ويذمُرُنا من غيرِ معصيةٍ   كأنَّهُ البدرُ لم يُطبعْ على الكذبِ (الديوان:١٧٥)

وصلة رسالته بالسماء، قال ردًّا على هبيرة بن أبي وهب في أُحُد:

... وَفِينَا رَسُولُ الله نَتْبَعُ أَمْـرَهُ   إِذَا قَـالَ فِيـنَا الْقَـوْلَ لَا نَتَطَلّعُ

تَدَلّى عَلَيْهِ الرّوحُ مِنْ عِنْـدِ رَبّهِ   يُنَزّلُ مِـنْ جَوّ السّمَاءِ وَيـرْفَـعُ

... قَالَ رَسُولُ الله لَمّا بَـدَوْا لَنَا   ذَرُوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنِيّاتِ وَاطْمَعُوا

وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقَرّبًا   إلَى مَلِـكٍ يُحْـيَا لَـدَيْهِ وَيُرْجَـعُ

وَلَكِنْ خُذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكّلُوا   عَلَى الله إنّ الْأَمْرَ لله أَجْمَعُ (الديوان:٢٢٤)

هذه القصيدة الأطول التي رُويت له، وتبلغ ٤٩ بيتًا، ويقول ابن هشام[٢١] عن البيت السادس من هذه القصيدة: "كان كعب بن مالك قد قال: "مُجَالِدُنَا عَنْ جِذْمنا[٢٢] كُلّ فَخْمَةٍ». فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيصلح أن نقول: مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا ؟ فقال كعب: نعم، فقال رسول الله ﷺ فهو أحسن.

هذه الرواية تدلُّ على استئناس النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الشعر الذي يردُّ به شعراء الأنصار على شعراء قريش المشركين، والقصيدة هذه وغيرها من القصائد التي يتحدّث فيها كعب بن مالك عن المعارك الكلاميّة والقتاليّة التي دارت بين المسلمين الذين كان الأنصار يشكّلون أكثريتهم، وبين المشركين الذين كانت تتزعمهم قريش وتوجّههم، وتبيّن أنّ كعبًا يتحدّث عن معارك شارك فيها بنفسه،

وليس عن معارك سمع بما جرى فيها كحال حسّان بن ثابت.

وقال كعب في الأبيات التي يذكر فيها نقباء العقبة، مفنّدًا رأي اثنين من كفّار قريش هما: أُبيّ بن خلف وأبو سفيان:

... أبى الله ما منّتك نفسُك أنّه / بمرصاد أمرِ الناس راءٍ وسامعُ

وأبلغ أبا سـفيانَ أنْ قـد بدا لنا / بأحمدَ نورٌ من هدى الله ساطـعُ (الديوان: ص ٢١٩)

وامتدح كعب النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بإثبات معجزاته، ومقارنتها بما كان للأنبياء عليهم السلام منها، وفي ذلك يقول:

وَإِنْ تَكُ نَمْلُ البَرِّ بالوَهْمِ كَلَّمتْ سُلَيْمانَ ذا المُلْكِ الذي ليس بالعَمِي

فهذا نَبيُّ الله أحْمَـدُ سَبَّحَـتْ صِغَارُ الحَصَى في كَفِّهِ بالتَّرَنُّمِ (الديوان: ص ٢٧٠)

وفي هذا الصدد يقول أيضًا:

فَإِنْ يَكُ مُوسى كَلَّم اللهُ جَهْرَة عَلَى الطُّورِ المُنِيـفِ المُعَـظَّمِ

فَقَدْ كَلَّم اللهُ النبيَّ محـمَّدًا عَلَى المَوْضِعِ الأَعْلَى الرَّفِيعِ المُسوَّمِ (الديوان: ص٢٧٠)

والمعاني كلّها مستمدّة من النصّ القرآنيّ لا من القيم الجاهليّة، وهذا واضح في معظم ما قال في رثاء حمزة بن عبد المطلب يقدّم النبوة على سائر الخصال:

... قَرْمٌ تَمَكَّنَ في ذُؤابَةِ هاشِمٍ حَيْثُ النُّبُوَّةُ والنَّدَى والسُّؤْدُدُ

النبـــــيِّ مُحَمَّدٍ وَصَـــفِيُّهُ ‏ ‏ ‏ وَردَ الحِمامَ فطابَ ذاكَ الـمَوْرِدُ

وَأَتى المُنِيَّةَ مُعْلِمًا فِي أُســـْرَةٍ ‏ ‏ ‏ نَصَرُوا النَّبِيَّ وَمِنْهُمْ المُسْتَشْهَدُ

وَلَقَدْ إِخَالُ بِذَاكَ هِنْدًا بُشِّرَتْ ‏ ‏ ‏ لَتُمِيتُ دَاخِلَ غُصَّةٍ لَا تَبــــْرُدُ

مما صَبحَناَ بالعقنقل قومــهَا ‏ ‏ ‏ يومًا تغيَبّ فيه عنها الأسـعد

وَبِبئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهـــُمْ ‏ ‏ ‏ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمـــَّدُ

حَتَّى رَأَيْتُ لَدَى النَّبِيِّ سَرَاتَهُمْ ‏ ‏ ‏ قِسْمَيْنِ: نَقْتُلُ مَنْ يَشَاءُ وَنَطْرُدُ

(الديوان: ص ١٩٠)

صحيح أنّه في رثائه للحمزة تحدث عن بطولته وشجاعته، لكنه ركز على كونه عمّ النبيّ، وفي مدح هاشم جعل النبوّة فيها مقدّمة على الكرم والسؤدد، وهي أسرة نصر أفرادُها النبيَّ، واستشهدوا من أجل الدعوة، ورثاء حمزة استدعى هجاء هند وقومها، مسميًّا من قتل منهم في تلك المعركة، مركّزًا على أن قتلى المشركين في النار وقتلى المسلمين في الجنّة مخلّدون ...

شَتَّانَ مَنْ هُوَ فِي جَهَنَّمَ ثَاوِيًا ‏ ‏ ‏ أَبَدًا وَمَنْ هُوَ فِي الجِنَانِ مُخَلَّدُ

(الديوان: ١٩٠-١٩١)

وفي رثائه للنبي يركز على أنّه المختار والمصطفى، وأتقى البرية، وخير الأنام، السراج الوهّاج، والبشير النذير، والهادي المنير.

يَا عَيْنُ فَابْكـــِي بِدَمْعٍ ذَرَى ... لِخَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَالْمُصْطَفَى

... عَلَى خَيْرِ مَنْ حَمَلَتْ نَاقَةٌ ... وَأَتْقَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ التُّقَى

عَلَى سَيِّدٍ مَاجِدٍ جَحْــفَلٍ ... وَخَيْرِ الأَنَامِ وَخَيْرِ اللها [العطايا]

لَهُ حَسَبٌ فَوْقَ كُلِّ الأَنَامِ ... مِنْ هَاشِمٍ ذَلِكَ الْمُرْتَجَـــى

نَخُصُّ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِهِ ... وَكَانَ سِرَاجًا لَنَا فِي الدُّجَى

وَكَانَ بَشِيرًا لَنَا مُـــنْذِرًا ... وَنُورًا لَنَا ضَوْؤهُ قَدْ أَضَا

فَأَنْقَـــذَنَا اللهُ فِي نُـورِهِ ... وَنَجَّى بِرَحْمَتِهِ مِنْ لَظـَــى ...

(الديوان: ص ١٧٣)

والنبيُّ هو خيرُ الناسِ قاطبةً، حيًا وميتًا، الأقربُ من ربِّ العالمين، الماجدُ التقيّ، ذو الأخلاق الحميدةِ الرشيدُ المرشدُ

وبَاكيـةٍ، حـرَّاءَ تَحـزَنُ بالبـكَا ... وتَلطـمُ مِنها خَـدَّها والمُقـلَّدَا

على هَـالِكٍ، بعـد النَّبـيّ محمَّـدٍ ... ولو عَلِمَت لم تَبكِ إلا مُحَمّـدَا

فُجِعنَا بِخَير النَّـاسِ حيّـًا ومَيِّتـًا ... وَأدنَـاهُ مِن ربِّ البَرِيَّةِ مَقعدًا

وأفظَعَهُم فَقدًا علـى كُلِّ مُسـلِمٍ ... وَأعظَمَهُم فِي النَّاسِ كُلِّهمُ يَدَا

لَقَد وَرِثَت أخلاقُهُ المَجدَ والتَّقَـى ... فَلَم تَلقَهُ إلا رَشِيدًا ومُرشِدا (الديوان: ١٩٨)

إنّ المعاني التي استخدمها كعب مستمدّة في معظمها من النصّ القرآنيّ، أو المزايا التي كانت ممدوحة في الجاهليّة، وظلّت كذلك في الإسلام.

ففي إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف:

... وَذلِكَ أَنّهُمْ كَفَروا بِرَبٍّ   عزيزٍ أمْرُهُ أَمْرٌ كَبِـــــيرُ

وقد أُوتُوا مَعًا فهمًا وَعِلمًا   وَجَاءَهُمُ مِنَ اللهِ النَّذِيرُ

نَذِيرٌ صَادِقٌ أدَّى كِتَابًـــا   وآياتٍ مبيَّنةٍ تُنــــــيرُ

فَقَالُوا ما أتيتَ بأمرِ صِدْقٍ   وآياتٍ مبيَّنةٍ تُنيـــــــرُ[٢٣]

فَقَالَ بَلَى لَقَدْ أَدَّيْتُ حقّــًا   يصدّقني به الفَهِمُ الخبـيرُ

فمن يتبْعهُ يُهْدَ لكلّ رشد   وَمَنْ يَكْفُر بِهِ يُجْزَ الْكَفُـورُ

فَلَمَّا أُشْرِبُوا غَدْرًا وَكُفْـرًا   وَحادَ بِهِمْ عَنْ الْحَقّ النُّفُورُ

أَرَى اللهُ النَّبيَّ برأيِ صِدْقٍ   وكانَ اللهُ يَحكُمُ لا يَجُورُ... (الديوان: ٢٠٣)

من الواضح أنّ المعاني إسلاميّة كلها، مستمدّة من النصّ القرآنيّ، في وصف اليهود الذين كانوا يعلمون علم اليقين صفات النبي، لكنّهم كذّبوه حقدًا وبغيًا ونفورًا.

وفي الأبيات هذه كما في غيرها تركيز على صدق النبي وصدق الرسالة.

وفي يوم الخندق: يقول إن أبطال الأنصار استشهدوا في سبيل الله:

... لنُظهِرَ دينك، اللهم إنّا   بكّفك فاهدنا سُبُلَ الرشاد (الديوان: ص ١٩٥)

القصيدة كلّها معنى وأسلوبًا جاهلية باستثناء هذا البيت الأخير الذي تحدّث فيه عن الرسالة، وهذا دليل على أنّ اتّباع الرسالة رقّق ألفاظَ الشعر، المستوحاة من النصّ القرآنيّ، كما يتضح أيضًا من هذه الأبيات السبعة التي قالها في يوم خيبر:

وَنَحْنُ وَرَدْنَا خَيْبَرًا وَفُرُوضُهُ ... بِكُلِّ فَتًى عَارِي الْأَشَاجِعِ مِذْوَدِ

يَرَى الْقَتْلَ مَدْحًا إنْ أَصَابَ شَهَادَةً ... مِنْ اللهِ يَرْجُوهَا وَفَوْزًا بِأَحْمَدِ

يَذُودُ وَيَحْمِي عَنْ ذِمَارِ مُحَمَّدٍ ... وَيَدْفَعُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ

وَيَنْصُرُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يُرِيبُهُ ... يَجُودُ بِنَفْسٍ دُونَ نَفْسِ مُحَمَّدِ

يُصَدِّقُ بِالْأَنْبَاءِ بِالْغَيْبِ مُخْلِصًا ... يُرِيدُ بِذَاكَ الْفَوْزَ وَالْعِزَّ فِي غَدِ

(الديوان: ص ١٩٧)

وفي ردّه على على ضرار بن الخطاب (الديوان، ص ٢٨٨) في يوم بدر يقول:

عجبتُ لأمرِ اللهِ واللهُ قَادِرُ ... على ما أرادَ لَيْسَ للهِ قَاهِرُ

وهذا الكلام مأخوذ من قوله تعالى: «وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ» (الرعد: الآية ١١).

... شَهِدْنَا بِأَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ... وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرُ

... وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا ... فَوَلَّوْا وَقَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرُ

وهذا القول من قوله تعالى: «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا

ساحر كذاب» (ص: الآية ٤).

لِأَمْرٍ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَهْلَكُوا بِهِ وَلَيْسَ لِأَمْرٍ حَمَّهُ اللهُ زَاجِرُ ...

وهذا القول مستمد من الآية ١١ من سورة الرعد، ومن الآية: «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» (الأنعام: الآية ١٤٧).

وقال حين أجمع الرسول عليه الصلاة والسلام السير إلى الطائف:

... قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ وَخَيْبَرَ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيوفَا ...
وأَنّا قَدْ أَتَيْنَاهُــــمْ بِزَحْـفٍ يُحِيطُ بِسُورِ حُصْنِهُمُ صُفُوفَا
رئيسُهُم النّبيُّ وكانَ صُلْبـاً نقيَّ القَلْبِ مُصْطَبِرًا عَزُوفـا
رَشِيدُ الأَمْرِ ذُو حُكْمٍ وَعِلْمٍ وَحِلْمٍ لَمْ يكنْ نَزقًا خَفِيــفَا
نُطِيعُ نَبِيَّنا ونُطِيعُ رَبَّـــا هو الرحمنُ كان بنا رَؤُوفـا

(الديوان: ٢٣٦)

واضح أنّ المعنى مستمدّ من الآية «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ»، (البقرة / ٢٠٧).

حسّان بن ثابت، والدور الإعلامي للشعر في عصر صدر الإسلام:

ذكرنا من قبل أنّ الرسول ﷺ استعان بشعراء الأنصار للردّ على مشركي قريش، وقد جاء شعر حسّان بن ثابت وكعب بن مالك سِجلًّا لأحداث تلك الحقبة متضمنًا (أسماء المعارك وأسماء الصحابة وأسماء المشركين)، لقد كان الشعر تاريخًا وسياسةً وإعلامًا..

وجاء فتح مكّة سنة ٦٣٠م. بعد ثماني سنوات من الهجرة وما تخلّلها من معارك حربيّة وكلاميّة بين المسلمين بقيادة النبي والمكّيّين بقيادة أبي سفيان، ليحسم الصراع لمصلحة المسلمين، إذ إنّ سيطرتهم على مكّة (وهي المركز التجاريّ والاقتصاديّ والدينيّ والسياسيّ الأهمّ في الجزيرة العربيّة) أوجدت خللًا نوعيًّا في توازن القوى بينهم وبين أعدائهم، دفع هؤلاء إلى التسليم بالأمر الواقع، وغيّر تاليًا الكثير من المعطيات.

لقد أثّرت هزيمة قريش في موقف القبائل البدويّة، التي كانت مصالحها ترتبط بالزعامة القرشيّة، وكانت قبل عام الفتح قد تعرّفت قليلًا أو كثيرًا دعوةَ النبي، وكانت متأثّرة أيضًا بالإعلام المضادّ لشعراء قريش...

العام ٦٣٠م هو (عام الوفود): بدأت وفود القبائل تفد على النبي تتعرّف إليه وتتعرف دعوته لتقرّر ما تراه بشأنها: نذكر مثلًا من هذه الوفود وفدَ بني تميم، الذي قصد مكّة لزيارة النبي برئاسة خطيب وشاعر يعرّفان بالقبيلة ويفتخران بأمجادها: يبدأ الخطيب وهو «عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي» الكلام مشيدًا بمآثر قبيلته وتفوّقها على غيرها من القبائل، وذلك بفضل الله ومنّه الذي جعلها على درجةٍ

عظيمة من العزّ والجاه والعظمة والغنى وكثرة العدد وشدَّة العدّة، وهم «رؤوس الناس» و«الملوك»، و«أعزّ أهل المشرق» ولا يمكن لأحد على الإطلاق أن ينافسهم، ومن يشكّ بذلك فلينافسهم فهذا ميدان المفاخرة: (إنه المنطق القبليّ الذي يكرّس العنجهيّة البدويّة القائمة على السيطرة والغلبة)، وردًّا على هذه العنجهيّة البدويّة يطلب الرسول ﷺ إلى (ثابت بن قيس الخزرجيّ) من الأنصار أن يردّ لدحض الإدعاءات المعلنة: فيعلن ثابت في خطبته أنّ الله هو الذي جعل «المسلمين» (ملوكًا) واختار أفضل خلقه لرسالته. ولا يكتفي ثابت بالردّ، إنّما يلجأ إلى الهجوم: حين يربط بين الإيمان بالرسول ﷺ وبدعوته وبين المجد والعظمة... مادحًا المهاجرين الأوائل أوّل المستجيبين للدعوة، ثمّ الأنصار (أنصار الله ووزراء رسوله)، ويضع ثابت العدوَّ أمام خَيارين: إمّا الإيمان والانضمام إلى كرام الناس وإمّا الكفر وتاليًا المواجهة التي تعني القتل والقتال...[٢٤]

ثمّ يلقي شاعر تميم «الزبرقان بن بدر التميميّ» قصيدة. فيطلب الرسول ﷺ إلى حسّان بن ثابت الخزرجيّ الأنصاريّ أن يردّ عليها.

اللافت هنا والذي تجدر ملاحظته، أنّ حرب قريش للنبي كانت حربًا بالسيف والقول، أمّا حرب القبائل له فكانت حربًا (بالقول) وهذا يتناسب وجوهر الدعوة التي ترتكز على (القول المعجز: النصّ القرآنيّ).

كان الردّ على (مشركي قريش)، والردّ على (الوفود) بالكلام الذي يدحض كلامهم، ويفنّده (كلام بشر مقابل كلام بشر مثلهم)، ولكنَّ ما يجدر تسجيله هنا أنَّ الردّ على الناطقين باسم القبائل، تولّاه أفراد أرقى منهم حضاريًا، إذا تذكرنا أنّ الأنصار هم من القبائل القحطانيّة القادمة من اليمن مع كلّ ما تحمله من تراث

حضاريّ، يذكّر بالقرابة بين أهل المدينة وبين النازحين إلى الشام والعراق الذين كان شعراء المدينة ومنهم حسّان بن ثابت يفتخرون بعلاقة القربى التي تربطهم بهم. تأتي قصيدة «الزبرقان بن بدر» في هذا السياق مفخرة بدويّة مشبعة بروح التعالي والمبالغة، وبروح التفوّق والسيطرة على الجميع من دون استثناء، تأكيدًا لخطبة عطارد، وردًا على خطبة ثابت بن قيس، لتكون النتيجة النهائيّة: المفاخرة بمِنعة تميم المطلقة التي تؤكّدها التجارب في الفعل وفي القول ويتضح لنا أنّ الزبرقان لا يشير إلى الإسلام من قريب ولا من بعيد سلبًا ولا إيجابًا... وفي هذا الشعر البدوي -على خلاف الخطبة- لا ذكرَ لله (البعد الدينيّ) مطلقًا، إنّه ميدان العنجهية البدويّة بامتياز، ففي هذا النصّ الشعريّ دفاع عن الذات الفرديّة، قبل أن تذوب في الجماعة: الحشرجة الأخيرة التي تعاني منها القيم القبليّة مقابل القيم الدينيّة الجديدة[٢٥].

ردّ حسّان على الزبرقان في القصيدة المشهورة، التي مطلعها:

إنَّ الذَوائِبَ مِن فِهرٍ وَإِخوَتِهِم   قَد بَيَّنوا سُنَّةً لِلناسِ تُتَّبَعُ

في ردّ حسّان في البيتين (١ و٢٩) تأكيدٌ لطرح ثابت حول الرسالة الدينيّة الجديدة، ولكنّ الأبيات من (٣-١٠) يطغى عليها الزخم القبليّ: فيأتي معادلًا تفاخرَ الزبرقان التميميّ، وهو يتمثّل في تأكيد البعد الجماعيّ باستخدام ضمير الغائبين مقابل ضمير المتكلّمين لدى الزبرقان. وفي نصّ حسّان يتجاور البعدان القبليّ والدينيّ ويتعاضدان...

إنّها الحرب الكلاميّة: يسعى حسّان إلى إفحام بني تميم ليعلنوا إسلامهم: وهذا يؤكد أهميّة القول (اللغة) في حياة العرب: لم يكن النبيّ هو الذي ردّ على تميم

مستخدمًا كلام الله ليحضّهم على دخول الإسلام: وإنّما استعان بخطيب وشاعر أفحما القوم فأسلموا (إنّها اللغة المهيمنة) التي تعادل لغة القوم وتتفوّق عليها، لا من حيث مصدرُها، فهي بشريّةٌ مثلُها، وإنّما من حيث القدرةُ على استخدامها. ضمن هذا الإطار يُفهَمُ موقفُ النبيِّ هنا، من استعانته بالشعراء في خضمّ مسيرته النضاليّة من أجل دعوته الدينيّة، تأكيدًا على حِسبان الكلام الجماليّ سلاحًا فكريًا ومعتقديًّا خطيرًا، وفي الإطار نفسه يُفهم الدور الذي أدّاه حسّان في مسيرة الدعوة، والمنزلة التي كانت له لدى النبي ولدى المسلمين.

إنّ إعلان بني تميم إسلامهم بالشكل الذي تمَّ فيه هذا الإعلان، من دون فهمٍ أو اقتناع بالدعوة الإسلاميّة، يوضّح كيفيّة دخول الكثير من العرب في الدين، كما يوضح السهولة التي خرجوا بها منه (الرِدّة)، أو عليه حين جعلوه «إيديولوجيا» يتحكمون بواسطتها برقاب الناس [نعني الذين أسلموا من قريش بعد الفتح].

في قصيدة الزبرقان كما ذكرنا عصبيَّةٌ قبليّة طاغية واعتداد بالكرم والغلبة، وبالكرم والمجد، وبالكرم والتفوّق: كلام على منعة تميم المطلقة التي تؤكّدها التجارب في الفعل وفي القول، واللافت أنّ الزبرقان لا يشير إلى الإسلام من قريب ولا من بعيد، لا سلبًا ولا إيجابًا، إنه ميدان العنجهيّة البدويّة بامتياز...

ردّ حسان على الزبرقان(٢٦):

إنّ الذوائبَ منْ فهرٍ وإخوتهمْ ... قدْ بينوا سنّةً للناسِ تتبــــــــــعُ (٢٧)

يَرْضَى بهَا كُلُّ مَن كانَتْ سرِيرَتُهُ ... تقوى الإلهِ وبالأمرِ الذي شرعوا

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوَّهمُ ... أوْ حاوَلُوا النّفْعَ في أشياعِهِمْ نَفعوا

لا يَرْقعُ النّاسُ ما أوْهَتْ أكفُّهُمُ عندَ الدفاعِ، ولا يوهونَ ما رقعوا

سجيةٌ تلكَ منهمْ غيرُ محدثةٍ إنّ الخلائِقَ، فاعلَمْ، شرُّها البِدَعُ[٢٨]

إن كان في الناس سبّاقون بعدهمُ فكلُّ سبقٍ لأدنى سبقِهِمْ تَبَعُ

ولا يَضَنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمُ وَلا يُعِيبُهُمُ في مَطْمَعٍ طَبَعُ

لا يجهلونَ -وإن حاولتَ- جهلهمُ في فضلِ أحلامِهم عن ذاك متّسعُ

أعِفّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحيِ عِفّتُهُمْ لا يَطْمَعونَ، ولا يُرْديهمُ الطّمَعُ

كم من صديقٍ لهمْ نالوا كرامَتَهُ ومِنْ عَدُوٍّ عَليهمُ جاهدٍ جدعوا

أعطوا نبيَّ الهدى والبرّ طاعتهمْ فمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عنْهُ وَما نَزَعُوا

إن قالَ سيروا أجدوا السيرَ جهدهمُ أوْ قالَ عوجوا عَلَيْنَا ساعةً، رَبَعُوا

خُذْ مِنهُمُ ما أتى عفْوًا، إذا غَضِبُوا ولا يكُنْ همُّكَ الأمرَ الذي مَنَعوا

فإنّ في حربهمْ -فاتركْ عداوتهمْ شَرًّا يُخَاضُ عَليهِ الصّابُ والسَّلَعُ

نسمو إذا الحربُ نالتنا مخالبها إذا الزعانفُ منْ أظفارها خشعوا

لا فَخْرَ إنْ هُمْ أصابُوا من عَدُوّهِمُ وَإنْ أُصِيبُوا فلا خَورٌ ولا جَزَعُ

كأنهمْ في الوغى ، والموتُ مكتنِعٌ أسدٌ ببيشةَ في أرساغها فدعُ

إذَا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لا نَدِبُّ لهُمْ كما يدبُّ إلى الوحشيةِ الذَّرِعُ

أكـرمْ بقـومٍ رسـولُ اللهِ شـيعتهمْ إذا تفرّقَـتِ الأهْـوَاءُ والشِّـيَعُ
أهْـدَى لهُـمْ مدحـي قـومٌ يُـؤازِرُهُ فِيـما يُحِـبُّ لِسَـانٌ حائِـكٌ صَنَـعُ
فإنّهُـمْ أفضَـلُ الأحْيَـاءِ كلّهِـمُ إنْ جَـدّ بالنّـاسِ جِـدُّ القـوْل أوْ شـمعوا (٢٩)

قراءة هذه القصيدة «تعطي فكرة عن الفرق بين شعر حسان وشعر كعب، المعاني الإسلامية في شعر كعب المتوافر بين أيدينا أكثر وأعمق من المعاني الواردة في شعر حسّان، وشعر حسّان مناسب أكثر للردّ على الشعراء المشركين، وعلى شعراء القبائل الذين جاؤوا إلى النبي يتفاخرون ويعتّدون بما لديهم من قوة:

لذلك نراه يركّز على القضيّة الأساسيّة التي يتبناها هذا النصّ وهي قضية الانتماء إلى الدين الإسلاميّ، ودعوة الآخرين إلى الإنضمام إليه معتمدًا على عنصرَي الإغراء والتهويل، أو الترغيب والترهيب. أي الترغيب بالإنضمام إلى الجماعة القوية الكريمة الفاضلة المخلصة والترهيب من مواجهتها، وعن هذين التناقضين القبول أو الموالاة (الإيمان)، والرفض أو المعارضة (الكفر)، تتفرع تناقضات ثنائيّة متعدّدة بين السلم والحرب، النفع والضرر، التشيع والعداوة، القوة والضعف، الحِلْمْ والجهل، الكرامة والذُّل، ويقسم النص إلى قسمين، الأول (من ١-١٣) تقديم وتعريف بجماعة المسلمين. وفي القسم الثاني: تحذير من معاداة هذه الجماعة ونصح وتوجيه، بصدد الموقف الذي يجدر به اتخاذه من هذه الجماعة، في ما يستكمل التعريف بها: يتحدّث حسّان باسم جماعة تنتمي إلى أكثر من أصل (فهر: قريش- إخوتهم: الأنصار -الناس) فيتجاوز إطار القبيلة المحصور ليقول إن هذه الجماعة اختطّت

[عندما سارت على خطى النبي] سبيلًا للناس أجمعين: يبدأ بالتعريف بالمسلمين من منطلق قبليّ محدّد، لكنه لا يقتصر عليه، فكأنّه يبدأ بما هو قائم ومفهوم وسائد، قبل أن يطرح الجديد والوافد والمختلف.

في البيت الرابع تهديد ضمنيّ (قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم)، هؤلاء الذين انتصروا للدعوة مستعدون للدفاع عنها... بعد التعريف بالجماعة الإسلامية، يجري تأكيد تفوقهم على من عداهم وتأكيد عطاءهم وخيرهم وتجردهم وعفّتهم وحلمهم ورزانتهم... ويؤكد ولاء الجماعة المطلق وطاعتها التامّة للرسول، نبي المسلمين: نبي الصلاح والخير، والتزام المسلمين بأوامر هذا الدين دلالة على عظمته: أمّا تبجيل النبي فيتجلّى في تصوير الشاعر لمدى إطاعتهم للنبي في المسيرة النضاليّة (فهم لا يتصرّفون من تلقاء أنفسهم).

فكلّ الصفات التي يتمتع بها المسلمون مرهونة بولاء المسلمين لنبيّهم، وهذا ما يميز الفخر الإسلاميّ عن الفخر القبلي. فهو ينقل المسلمين من المعطى القبليّ الضيّق إلى المعطى الإنسانيّ الشامل. ضمن هذا المنظور تأتي الدعوة إلى الانخراط في هذا الدين، ويشكّل رسمًا نموذجيًا للمسلمين الأوائل يرهّب من معاداتهم ويرغّب في التمثّل بهم.

في القسم الثاني من القصيدة وحدتان: الأولى (١٤-١٩) تتضمّن النصح والتحذير، والثانية تتضمّن الحضّ والتشجيع، والدعوة إلى موالاة المسلمين، وذلك امتداد للكلام على طاعة المسلمين للنبيّ، كما يصوّر عواقب معاداة المسلمين بتصوير الضرر الذي يصيب أعداءهم... أما المسلمون:

فإنّهم أفضلُ الأحياءِ كلّهمُ   إن جَدّ بالناس جِدُّ القولِ أو شمعوا

هذا النص الموجّه إلى (الزبرقان ومَن وراءه مِن قومه) ومِن ورائهم كلّ القبائل الأخرى يهدف إلى إقناع الذين لم يعلنوا إسلامهم بعد بصوابيّة الدعوة الإسلاميّة، ويتضح ذلك من استخدام الشاعر لضمير المخاطب المفرد، علمًا أنّ هذا المخاطب (الزبرقان) كان قد استخدم صيغة ال (نحن)، أي أنّه قدّم نفسه ناطقًا باسم قبيلته، وكأنّ حسّان بمخاطبته له مخاطبة المفرد يُظهر له احتقارًا، أو عدم اعتراف بقيمته المعنويّة.

أما المتكلّم (المرسِل حسان: فهو يتحدث منذ بداية القصيدة وحتى نهاية البيت الرابع عشر باسم جماعة المسلمين عامّة، ولكنّه يتحدث عنها لا بصيغة المتكلم (الجمع نحن) وإنما يستخدم ضمير الغائب (الجمع)، وربما كان ذلك مقصودًا كي يميّز بين المسلمين وهو واحد منهم، وبين الأنصار قومه الذين نصروا النبيّ، والذين يتحدّث عنهم مباشرة في البيتين الخامس عشر (نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها)، والتاسع عشر (إذا نصبنا لقوم...).

المرة الوحيدة التي يستخدم فيها الشاعر (ضمير المتكلم المفرد) في البيت (٢١) كان الهدف تمييز نفسه شاعرًا يتولّى مهمّة الدفاع عن الرسول والدين بالقول (المدح). على الرّغم من أنَّ النصّ هدفه الدفاع عن الإسلام، وحضّ القبائل على الانخراط فيه، فإنّ البعد الإسلامي فيه ضعيف إذا قورن بالبعد غير الإسلاميّ، لا سيّما في عمليّة الاحتجاج والتفاخر التي يؤدّيها. حتى ليكاد البعد الإسلاميّ ينحصر في بعض المعاني المحدودة والمتفرّقة (تقوى الإله)، (الوحي)، (نبي الهدى)، (رسول الله). وقد جاءت هذه المعاني الإسلاميّة في سياق عام تغلب عليه معاني

الفخر المعروفة قبل الإسلام، والتي كان يستخدمها حسّان نفسه في فخره بقومه ومدحه للغساسنة.

خلاصة الكلام إنّ حسّانَ لم يتطرّق في النص لآخرةٍ أو حساب أو جنَّةٍ أو نار، أو غير ذلك من المفاهيم الإسلاميّة، وهذا يؤكّد ما قلناه من قبل من أنّ صورة النبي والإسلام في شعر عصر صدر الإسلام، تمثّل الصورة التي كانت للنبي في أذهان معاصريه من المسلمين، وفي أذهان أولئك الذين أُطلق عليهم اسم الصحابة، على الرغم من التفاوت في عدد السنين التي أعلنوا فيها إسلامهم، وفي موقفهم الأوّل من الدين، وفي العمر الذي كانوا قد بلغوه عندما أعلنوا إسلامهم، وما يرتبط بذلك من غلبة المفاهيم القبليّة الجاهليّة على تفكيرهم.

إنّ حسّانَ بنَ ثابت يمثل أولئك الذين أسلموا وهم في عمر متأخّر من حياتهم، ولم يستطيعوا التخلّص ممّا درجوا عليه طيلة عمرهم من مفاهيم، أما كعب بن مالك فيمثّل فئةً من الصحابة الشباب، الذين أسلموا ودافعوا عن الدين بالسيف وبالكلمة، وأمّا كعب بن زهير فيمثّل ذلك النفر من المسلمين الذين أعلنوا إسلامهم خوفًا واضطرارًا، واكتفوا بترديد ما سمعوه من ألفاظ وعبارات إسلاميّة ترديدًا فحسب، سالكين إياه في المنظومة التقليديّة التي مرنوا عليها قبل ظهور الإسلام.

الخاتمة

خلاصة الكلام إنّ حسّانَ لم يتطرّق في النص لآخرةٍ أو حساب أو جنَّةٍ أو نار، أو غير ذلك من المفاهيم الإسلاميّة، وهذا يؤكّد ما قلناه من قبل من أنّ صورة النبي والإسلام في شعر عصر صدر الإسلام، تمثّل الصورة التي كانت للنبي في أذهان معاصريه من المسلمين، وفي أذهان أولئك الذين أُطلق عليهم اسم الصحابة، على الرغم من التفاوت في عدد السنين التي أعلنوا فيها إسلامهم، وفي موقفهم الأوّل من الدين، وفي العمر الذي كانوا قد بلغوه عندما أعلنوا إسلامهم، وما يرتبط بذلك من غلبة المفاهيم القبليّة الجاهليّة على تفكيرهم.

إنّ حسّانَ بنَ ثابت يمثل أولئك الذين أسلموا وهم في عمر متأخّر من حياتهم، ولم يستطيعوا التخلّص ممّا درجوا عليه طيلة عمرهم من مفاهيم، أما كعب بن مالك فيمثّل فئةً من الصحابة الشباب، الذين أسلموا ودافعوا عن الدين بالسيف وبالكلمة، وأمّا كعب بن زهير فيمثّل ذلك النفر من المسلمين الذين أعلنوا إسلامهم خوفًا واضطرارًا، واكتفوا بترديد ما سمعوه من ألفاظ وعبارات إسلاميّة ترديدًا فحسب، سالكين إياه في المنظومة التقليديّة التي مرنوا عليها قبل ظهور الإسلام.

الهوامش

(١) سيرة ابن هشام، مج ١، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٢) مختصر صحيح مسلم، ج٢، ص ٢١٨-٢١٩.

(٣) المصدر نفسه، مج ٢، ص ١٥٧.

(٤) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(٦) ابن سلام، طبقات الشعراء، ص ٩٥.

(٧) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص ٢٨٠، وقد نسب البعض هذه القصيدة إلى حسان بن ثابت.

(٨) ترجمته في طبقات الشعراء، ص ٥٣، والأغاني، ج٥، ص٣؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، قسم ٤، ص ١٥١٥. والشعر والشعراء، ج١، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٩) ضيف، شوقي، العصر الإسلاميّ، ص ١٠٣.

(١٠) كعب بن زهير بن أبي سلمى المُزنيّ، كان كبير أبناء زهير، وقد عُنيَ به أبوه عنايةً خاصة... حتى نبغ، ونحا نحو أبيه في «تنخل التعابير» و«تثقيف» القوافي... كان في اكتمال شبابه عندما ضخم أمرُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل أخاه بُجيرًا يستطلع الدين الجديد في حدود السنة ٦٢٨م. فأسلم بجير ولم يعد، فغضب كعب. وأقام يلوم أخاه، ويهجو النبيّ والإسلام... ولما بلغ الهجاءُ النبيَّ أهدرَ دمَ الشاعر، فخاف بُجَيْرٌ، وأرسل إلى أخيه أن يقبلَ على النبيِّ معتذرًا، فأقبل وأنشده «بانت سعاد»...

تفاصيل القصة في:

العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، مصر، ١٩٤٩م؛ إبن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤، ص ٧٩-٩١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، مصر ١٩٣٦،

الإصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ١٧٤، ط. علي محمد البجاوي، بيروت، ١٩٧٠ م، محمد بن سلام الجمعيّ، طبقات الشعراء، ليدن ١٩١٦، السكري، حسن بن حسين، شرح ديوان كعب بن زهير، القاهرة ١٩٨٥ م، البستاني، فؤاد أفرام، المجاني الحديثة، عن مجاني الأب شيخو، بيروت المطبعة الكاثوليكيّة، ط٢، لاتا، ج٢، ص ١١-١٨.

(١١) أ- الاستهلال بالغزل، فوصف سعاد، والإشارة إلى إخلافها بالوعد (١-١٢).

ب- التخلص إلى وصف الناقة (١٣-٣٣).

ج- التخلص إلى ذكر النبي، ووصف حالة الشاعر من الاضطراب (٣٤-٣٧).

د- الإعتذار إلى النبيّ ومدحه (٣٨ - ٥٠).

هـ- الانتهاء بمدح المهاجرين من قريش (٥١-٥٨).

(١٢) العسقلانيّ، إبن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، م.س.

(١٣) البستاني، المجاني الحديثة، م.س، ص ١٥، الحاشية، رقم (٣).

(١٤) البستاني، المجاني الحديثة، م.س. ج٢، ص ١٦.

(١٥) العاني، سامي مكي، ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ، ص ٢٥٥.

(١٦) حسان بن ثابت، الديوان، ص ٦٨، الحاشية ب.

(١٧) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(١٨) ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ: م.س.، ص ٢٥٥.

(١٩) ديوان حسان بن ثابت، م.س.، ص ٩٨.

(٢٠) كان كعب في حوالى الخامسة والعشرين من عمره حين أعلن إسلامه، وكان من أوائل الأنصار في المدينة، وقد صلّى الجمعة في المدينة قبل هجرة الرسول إليها، وعندما آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، كان كعب ممن شملتهم هذه المؤاخاة. فقد آخى الرسول بينه وبين

طلحة بن عبدالله... وحارب كعب في صفوف المسلمين في جميع المشاهد، إلاّ غزوتي بدر وتبوك. العاني، سامي مكي، مقدمة ديوان كعب بن مالك الأنصاري، ص ٦٠-٦١.

(٢١) إبن هشام، السيرة، مج ٢، ص ١٣٢، والعاني، ديوان كعب بن مالك، ص ٢٢٣.

(٢٢) جِذْم الرجل: أهله وعشيرتُه، لسان العرب، مادّة جذم.

(٢٣) .هكذا وردت في الديوان

(٢٤) لمعرفة تفاصيل القصة تجدر مراجعة ديوان حسان بن ثابت، ص ٢٢٩ – ٣٠١،

ودلال عبّاس، القرآن والشعر، دار المواسم، ٢٠١٠، ص ٢٣٠ وما بعدها.

(٢٥) عباس، دلال، القرآن والشعر، مصدر سابق، ص٢٣٣.

(٢٦) ديوان حسان بن ثابت الأنصاريّ، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢٧) الذوائب: السادة، فهر أصل قريش الذي يُنسب إليه عرب الشمال العدنانيون – إخوتهم (الأنصار) يعودون بنسبهم إلى قحطان في القبائل اليمنية.

(٢٨) البدع: ج بدعة، مستحدثات الأخلاق والسلوك.

(٢٩) الشمع والشموع والشماع: الطرب والضحك والمزاح وشمعوا: لم يجدوا.

المصادر والمراجع:

المصادر:

القرآن الكريم.

١.حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت الأنصاريّ، تحقيق وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.

٢.كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، شرح السكري، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠م.

٣.كعب بن مالك الأنصاريّ، ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ، تحقيق سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٦م.

المراجع:

٤.ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة ط٤، بيروت، لبنان، سنة ١٩٦٤م.

٥.ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق سعد، طه عبد الرؤوف، دار الجيل، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.

٦.الإصفهاني، لأبو الفرج، الأغاني، دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، سنة ١٩٦٣م.

٧.البستاني، فؤاد افرام، المجاني الحديثة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، سنة ١٩٦٥م.

٨.الجرجاني، عبدالقاهر، دلائل الإعجاز: مكتبة القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ، سنة ١٩٦٩م.

٩.الجمحي، محمّد بن سلام، طبقات الشعراء، جوزف هل، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٨٢م.

١٠.حسين، طه، إسلاميات: دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٣م.

١١.خفاجة، محمّد عبد المنعم، الحياة الأدبيّة في عصر صدر الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ١٩٨٠م.

١٢.د. طه حسين، على هامش السيرة، دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٣م.

١٣.سامي سويدان، في النصّ الشعريّ العربيّ، دار الآداب، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٩م.

١٤.شوقي ضيف، العصر الإسلاميّ، دار المعارف. مصر، الطبعة السابعة، سنة ١٩٧٨م.

١٥.شوقي ضيف، الفنّ ومذاهبه في الشعر العربيّ، دار المعارف بمصر، ط٤، سنة ١٩٦٥م.

١٦.العاني، د. سامي مكي. الإسلام والشعر: سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سنة ١٩٨٣م.

١٧.فيصل، شكري، المجتمعات الإسلاميّة، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٥٢م.

١٨.فيصل، شكري، تطوّر الغزل بين الجاهليّة والإسلام، دار الحياة، ط٣، سنة ١٩٦٥م.

١٩.كحالة، عمر رضا، الأدب العربيّ في الجاهليّة والإسلام، المطبعة التعاونية، دمشق، سنة ١٩٧٢م.

٢٠.ماسيه، هنري: الإسلام: ترجمة بهيج شعبان، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٨٨م.

٢١.المسعودي، مروج الذهب، منشورات الجامعة اللبنانيّة، وطبعة عبد الحميد، محي الدين، لا.ت.

٢٢.مغنية، د. حبيب، الأدب العربيّ من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشديّ: دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٩٥ م.